مجلة كليّة
الدعوة الإسلامية
عشر
مجلّة إسلاميّة - ثقافيّة - جامعة - محكمة تصدر سنويًا
1424 من ميلاد الرسول ﷺ 1995 أفرنجي

إختتام النّبوّة

ظاهرة الشّعراء الكُتّاب في ليبيا

مالم يُذع من المصطلحات النحويّة

مجمل لتاريخ الكنيسة

اختتام النبوة ووحدة الأمة (*)

د. شلتاغ عبّود
جامعة سبها - كلية الآداب والتربية

مقدمة:

اختتام النبوة موضوع واسع ومتشعب سعة الإسلام وعقيدته. وبإمكانك أن تتناول موضوعات شتى منه تتعلق بالأحداث التي ألمت بالرسالة والرسول أو الأحداث التي تلت وفاة الرسول ﷺ كما أن بإمكانك أن ترصد ظواهر معاصرة كثيرة ذات صلة بشكل أو آخر بموضوع اختتام النبوة.

ولكل باحث هم يملأ عليه أقطار نفسه، وزاوية يلح في النظر إليها، ومقاييس يتداولها في النظر إلى الأمور التاريخية والمعاصرة. ولا أخفي أن الهم الذي يرين على نفسي متأت من النظر إلى واقع الأمة اليوم خاصة. وهو

(*) بحث ألقي في ندوة (خمسة عشر قرناً على اختتام النبوة) في شهر ناصر 1991 برعاية جمعية الدعوة الإسلامية - طرابلس - الجماهيرية العظمى.

واقع ربما يكون يعيش أسوأ حالات أيامه منذ قرون طويلة. وأنت لست بحاجة إلى من يذكرك بشيء من هذا، فالحواس كلها يضغط عليها بالآلام والحسرات، ولا أملك وإياك إلا أن نقول، كما قال المتنبي:

وكنت إذا أصابتني سهام تكسّرت النصال على النصال

ولهذا تراني أتناول موضوعاً شديد الصلة بأحوالنا النفسية وبموضوع اختتام النبوة كذلك، إذ إن (وحدة الأمة واختتام النبوة) يفتح أعيننا على كوى الأمل، ويبعث في نفوسنا قوى الترقب والفاعلية، كما أنه ينطلق من حقائق لا خلاف حولها، حقائق أن النبوة ما ابتدأت، وما اختتمت إلا كان هاجسها الأول التوحيد والوحدة.. ومن هذا الجو تستطيع أن تستلهم شتى الرؤى وتمتاح من شتى الأحداث ما يؤكد لك أن التوحيد والوحدة هما المظهر الأبرز في دعوة محمد الخاتمة لدعوات الأنبياء والرسل السابقين.

وأنا أعتقد أن أعظم حاجة لحياة أمة الإسلام اليوم بعد التوحيد هي حاجتها إلى الوحدة والاتحاد وأن الحاجات الأخرى كلها تبع لهذه الحاجة ونتيجة إيجابية من نتائجها.

العرب قبل النبوة الخاتمة:

على الرغم من الكتابات التي كتبت في الفترة الأخيرة، وأكدت على مظاهر للتطور والوحدة في حياة العرب قبل الإسلام، فإن الحق الذي لا مراء فيه والواقع الذي لا يخطئه كل ذي عينين أن تلك الحياة ما كان لها أن تسير في طريق الوحدة لو لم يغشاها طارق من السماء، أو تمسها يد من الغيب، فإذا كانت بعض الأحداث قد وحدت بينهم مرحلياً، وإذا كانت بعض الظواهر الدينية خاصة الحج إلى مكة قد وحد بينهم روحياً، فإن ثمة عناصر من التمزق والشقاق والنفور ما يستعصي على الحل، ويسد المنافذ إلى الوحدة الحقيقية على المستوى الروحي والاجتماعي والسياسي.

فقد كانت قبائل العرب تتكون مما يقرب من (360) ثلاثمائة وستين قبيلة، ولكل قبيلة إلهها وصنمها[1] وكان التعصب للقبيلة أو الإله، أو اللون أو

---

(1) ينظر مقال الدكتور محمد الطيب النجار في كتب (محمد نظرة عصرية جديدة)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 2، 1979 م، ص 83.

مقاييس الجاه والغنى والكثرة ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾[2] فلم يكن هناك من أمل إلا الأمل الطارىء الذي يعتمد على أسس موضوعية يعلمها الله، وتتبدى لنا من ظاهر الأمور، ولعل أبرزها تلك السمات الخاصة بالإنسان العربي الفطري المؤهل لحمل الرسالة والبلوغ بها إلى غاياتها.

لقد كان العربي شديد الحساسية إزاء ذاته إلى حد التضخم والورم، ونظرة واحدة إلى غرض الفخر في الشعر الجاهلي، سواء أكان الفخر الفردي أم الفخر الجماعي، تطلعك على روح عجيبة من الزهو والخيلاء التي لا حدود لها، حتى أنك لا تكاد تجدها لدى شعب من شعوب العالم. وحتى من الناحية الكمية أكاد أزعم أن غرض الفخر يفوق أغراض الشعر، بل يوظف تلك الأغراض لهدفه ومنحاه.

وكانت تلك العصبية، وذلك الإباء المتولد منها، يستعصيان على الخضوع إلا لأقطار السموات والأرضين، فقد عزّ على أهل اليمن، مثلاً، أن يخضعوا للإسلام أول الأمر، لأنه ظهر بالحجاز (لأن اليمن اعتادت أن تغزو الحجاز، ولم يغزها الحجاز من قبل قط)[3]، كما عز على قبائل العرب أن يظهر نبي من بطن واحدة من بطون العرب، ولا يكون لتلك القبائل هذا الشرف العظيم، وكأن النبي ظاهرة يمكن بلوغها بالمفاخر والمعطيات الدنيوية، فكان أن ظهر الأسود بن كعب العنسي بصنعاء، وظهر مسيلمة الكذاب من بني حنيفة باليمامة[4]، وكان ظهورهما من منطلقات قبلية بحتة وكان هناك توق خفي لكل قبيلة أن يكون نبي العرب منها، ولكنها واجهت الحقيقة الساطعة في النهاية ولم تقو على الادعاء... أيّ ادعاء..

---

(2) سورة الذاريات، الآية: 42.

(3) د. محمد حسنين هيكل، حياة محمد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط 15، 1968 م ص 488.

(4) السيرة النبوية لابن هشام، دار الجيل، بيروت، ط، 1975 م، ج 4، ص 182، تقديم وتعليق طه عبد الرؤوف سعد.

ويحق لنا في هذا المقام أن نستشهد بمقولة العلامة ابن خلدون: (أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة، والسبب في ذلك أنهم لخلُق التوحش الذي فيهم أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرئاسة فقلما تجتمع أهواؤهم. فإذا كان الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم، وذهب خلُق الكبر والمنافسة فيهم، فسهل انقيادهم واجتماعهم... وهم مع ذلك أسرع الناس قبولاً للحق والهدى لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبراءتها من ذميم الأخلاق)[5].

ونحن إذا استبدلنا مصطلحات العمران وعلم الاجتماع في مقدمة ابن خلدون، ووضعنا مكانها مصطلحاتنا الحضارية اليوم وجدنا أن الرجل يتحدث عن حقيقة اجتماعية ونفسية كانت راسخة في نفوس العرب آنذاك. ولكنهم سيكونون خلقاً آخر بفضل نبوة محمد ﷺ وبفضل الخصيصة الفطرية النقية التي أشار إليها ابن خلدون نفسه.

ولقد كان التعبير القرآني واضحاً عن طبيعة العلاقات بين العرب أفراداً وقبائل قبل الإسلام، إذ كانت طبيعة العلاقة (العداء)، بكل ما لهذا العداء من شوائب وظواهر ونتائج ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً﴾ وهذه العداوة قد أدت بكم إلى أن تكونوا ﴿عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾[6]، وهو تعبير يجسد هول تلك العداوة وعواقبها الوخيمة المدمرة التي تهلك الحرث والنسل وتأكل الأخضر واليابس وتذر الأرض والنفوس بلاقع.

وكان التعبير القرآني الثاني يوضح أنه ما كان لهذه العداوة أن تنتهي بأية وسيلة من وسائل التآلف المعروفة من وساطات أو أموال، أو أحداث خارجية؛ إلا برحمة من الله ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[7].

---

(5) المقدمة مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط 1 س؟، ص 151.

(6) سورة آل عمران، الآية 103.

(7) سورة الأنفال، الآية: 63.

نبي التوحيد والوحدة:

(نبي التوحيد) هذا ما لا نريد الوقوف عند مصاديقه التاريخية، لأن القرآن الكريم وصف الاتجاه السائد عند أقرب ديانتين من الناحية الزمنية للإسلام، وهما اليهودية والنصرانية بقوله ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾[8] وقوله ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾[9]، وهذا يدل على أن هاتين الديانتين انتهتا على أيدي الأحبار والرهبان إلى نوع من الشرك. فكانت نبوة محمد الخاتمة لكل دين مما طرأ عليه تحريف أو لم يطرأ معلنة التوحيد الخالص من كل شائبة. وهذا ما اضطلعت به الآيات القرآنية المتحدثة عن صفات الله الكمالية ورسخته السيرة النبوية في دعوتها.

فقد قيل لمحمد أن ينتهي عن ذم آلهة قريش، وسوف تتركه قريش وشأنه، وقد قيل له أن يكون ملكاً على العرب على أن يترك أنداد الله، وشركاءه الذين يزعمون، كما كتب مسيلمة الكذاب قائلاً: (من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله: السلام عليك؛ أما بعد فإني قد أُشركت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض، ولقريش نصف الأرض)، فكتب إليه الرسول ﷺ: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب: السلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين)[10].

فما كان لمحمد أن يقر مسيلمة على نبوته المزعومة لأن ذلك يتناقض مع ختم النبوة ومع التوحيد ذاته، فلا توحيد يكون مع قبول نبوة مشركة زائفة طامعة.

أما (نبي الوحدة) فهذا ما نريد أن نقف بين يديه، نرصد من خلاله كيف تمت هذه الوحدة لمحمد ﷺ بعد رفع شعار التوحيد، وإن كان شعار التوحيد

---

(8) سورة التوبة، الآية: 30.

(9) سورة المائدة، الآية: 73.

(10) سيرة ابن هشام، ج 4، ص 183.

ذاته يعني ضمناً الأمة الواحدة التي تنضوي تحت لواء الإله الواحد والدين الواحد والنبي الواحد.

وإذا كان الله قد تكفل بنشر هذا التوحيد القائم على الوحدة القوية، فإن للنبي المختار من الصفات الخلقية ما ساعد على التفاف الناس حوله. فلقد كان حقاً كما وصفه خالقه ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[11]، ويكفي بهذا شهادة.

إن هذه الخلق لم تكن سجية واحدة غالبة على سجايا أخرى كما يظهر لدى الناس، أو كما يظهر لدى الأنبياء السابقين في غلبة صفة خلقية أو نفسية على الصفات الأخرى، بل إن هذه الخلق لتبدو متساوية كلها في الكمال في العطاء والانعكاس على السلوك. فكان أن استطاعت هذه الشخصية القيادية النبوية أن تحقق ما كان مستحيلاً وقوعه في حياة العرب. يقول الأستاذ جلال مظهر: (كان على الرغم مما عرفت جزيرة العرب في ماضي تاريخها الطويل من ممالك وملوك وأمراء أقوياء، أول عربي استطاع أن يوحد قبائل العرب جميعاً ويخضعهم تحت راية واحدة، ويجمع صفوفهم في دولة لها نظم وشرائع يخضعون جميعاً لها، ويوجههم ثمة نحو هدف مشترك)[12].

وهكذا انتقل التفكير العربي من التفكير القبلي إلى التفكير العقدي والأممي فإذا كانت القبيلة العربية قبل الإسلام هي الوحدة السياسية المصغرة فإن محمداً ﷺ سار بها إلى الوحدة الأشمل التي تتمثل بالدولة التي سوف تتدرج في الجزيرة العربية حتى تسع أقاليم العالم.

وإذا كان جهد المرء في الجاهلية منصباً على خدمة ذاته أو خدمة قبيلته أو خدمة بطن قبيلته أو فخذها فإنّه في ظل الإسلام أصبح هدفه أن يخدم العقيدة الجديدة ويضحي من أجلها.

فهذه قبيلة باهلة مثلاً كانت من القبائل التي يخجل المرء من أن ينسب

---

(11) سورة القلم، الآية: 4.

(12) محمد رسول الله، سيرته وأثره في الحضارة، مكتبة الخانجي بمصر، ط 1، 1971 م، ص 372 وينظر مولانا محمد علي، حياة محمد ورسالته، دار العلم للملايين، بيروت، طه، 1979 م، ص 219.

إليها حتى قال فيهم أعداؤهم:

ولـو قـيـل لـلـكـلـب يـا بـاهـلـي عوى الكلب من شؤم ذاك النسبْ

هذه القبيلة رأت في انتسابها للإسلام ما يغنيها عن الحسب والنسب، حتى قال قائلهم: ـ

فـنـحـن بـنـو الإسـلام، واللّه واحـد وأولى عباد اللّه باللّه من شكر[13]

لقد كان منطلق التفكير يقتضي أن تعدد القبائل وتفاوتها في الكثرة أو الأحساب والمفاخر التاريخية، أو غناها وسطوتها، ويقتضي التمايز على الأسس السابقة. أما المنطلق الجديد، منطق الكتاب الذي جاءت به النبوة الخاتمة، فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[14]، هذا المنطق يقرر أن النتيجة المترتبة على هذا التعدد والتفاوت بين الأجناس والشعوب هي التعارف والتقارب والتحاب، وليس التنافر والتفرق.. وهذا أعظم إنجاز تحققه نبوة محمد ﷺ على مستوى التفكير الإنساني وعلى مستوى العلاقات البشرية أين منه العلاقات القائمة بين الدول والشعوب اليوم على الرغم مما يقال وينظر من التطور الذي بلغه إنسان اليوم على مستوى التقنيات الآلية والإلكترونية؟..

الوحدة السياسية ما بين فتح مكة وحجة الوداع:

كان الصراع سجالاً بين صاحب الرسالة والعرب منذ لحظات الدعوة الأولى، وكان هذا الصراع قاسياً وغير متكافىء حين اتخذ طابعاً حربياً بعد الهجرة متمثلاً في معارك بدر وأحد والأحزاب وفي كثير من غزوات الرسول وسراياه، وكان مما قدمنا أن العرب كانت ما تزال ترصد نهايات الصراع لترى لمن تكون الغلبة، ألقريش حامية الكعبة أم لداعية الدين الجديد؟ حتى إذا ما كان من فتح مكة رجحت كفة الدعوة وكفة صاحبها على من سواه من العرب

(13) محمد، نظرة عصرية جديدة، ص 85.

(14) سورة الحجرات، الآية 13.

فكان أن تغير موقف القبائل العربية المتناثرة هنا وهناك في الجزيرة، يقول ابن إسحاق (وإنما كانت العربُ تربص بالإسلام أمر هذا الحي من قريش، وأمر رسول الله ﷺ، وذلك أن قريشاً كانوا أمام الناس وهاديهم، وأهل البيت الحرام، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وقادة العرب لا ينكرون ذلك.. فلما افتتحت مكة، ودانت له قريش، ودوّخها الإسلام، وعرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته، فدخلوا في دين الله، كما قال عز وجل، أفواجاً، يضربون إليه من كل وجه[15].

بعد هذا الفتح أخذت وفود العرب تترى على المدينة تعلن إسلامها وإذعانها للنبوة والرسالة وللدولة والعقيدة حتى سميت السنة التاسعة من الهجرة بسنة الوفود[16]. ولكن هذا لا يعني أن القبائل العربية كلها قد أسلمت القياد، فحتى السنة التاسعة أي بعد فتح مكة في السنة الثامنة كان هناك بعض القبائل غير مستجيبة للرسالة، وفي روحها شيء من التمرد والرفض بل والتفكير في الاعتداء، فكانت هناك بعض الحروب والغزوات وكان آخرها غزوة علي بن أبي طالب إلى اليمن[17].

ولكن تلك الغزوات انتهت بإذعان القبائل الصغيرة بعد أن رأت من غلبة الإسلام ورسوخ دولته.

ويهمنا أن نقف عند جانب من خطبة حجة الوداع، وما فيها من قيم وتوجيهات توحيدية ووحدوية. ومن الضروري أن نشير إلى أن مفهوم الوحدة عندنا يتجاوز الفهم السياسي إلى الوحدة في التفكير والأحاسيس والنظر إلى العنصر الإنساني في العلاقات، والمعاملات بين الناس من حيث تكافؤها والعدل في تسييرها، وهذه القيم تتفاعل مجتمعةً في خطبة حجة الوداع مع التوحيد وتنبعث من عبقه ونوره.

في هذه الخطبة يقول الرسول ﷺ: «أيها الناس إن ربكم واحد، وإن

---

(15) سيرة ابن هشام، ج 4 ص 152.

(16) المصدر السابق، ص 152.

(17) نفسه، ص 212.

أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب. إن أكرمكم عند الله أتقاكم، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى»[18].

وهذا الاقتران بعد وحدانية الرب، ووحدة الأصل لها دلالتها الإيحائية في أن الموحد لله لا ينبغي أن ينظر لأي جنس من البشر نظرة ازدراء أو احتقار لمجرد أنه لا ينتمي لجنسه أو فصيلته. فالإنسان ـ من أي جنس كان ـ إما أخ لك في الدين أو شبيه لك في الخلق. وهذا وحده كافٍ لأن يكون بينكما عنصر مودة وتعاطف. وكانت هذه بحاجة إلى توكيد خاص لذاتها، أي من حيث قيمتها للمسار الإنساني، ومن حيث إنها تمثل الكلمات الأخيرة، أو المرحلة المتأخرة من ختم النبوة. ولهذا كان الرسول قد انتدب من يكررها خلفه على جموع المسلمين التي بلغت مائة ألف أو تزيد، وكان يشفعها بقوله: اللهم هل بلغت؟ فيقول الناس بعده: اللهم نعم. ثم يقول ﷺ: «اللهم اشهد».

وتؤكد الخطبة على الأبعاد الاجتماعية من الوحدة فيقول: (أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا)[19]، لأنه لا يعقل أن تكون هناك وحدة سياسية دون وحدة عقيدة ووحدة قلوب ووحدة نظام اجتماعي عادل. وفي الخطبة مقاطع تشريعية هامة كتحريم الربا، والتوصية بالنساء خيراً، إلى غير ذلك من التوجيهات. والذي يهمنا الوقوف عنده هو البعد الوحدوي على المستويات المتعددة، وهو البعد الذي أراد الرسول التركيز عليه وهو يودع الأمة، ويعلن عن اختتام النبوة إلى قيام يوم الدين.

ويبدو لي أن الرسول ﷺ كان ينظر بطرف موح حين قال في الخطبة ذاتها: (أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه، ولكنه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم). فالظاهر أن مما نحقره من أعمالنا هو ما نأتيه من مظالم ومعاصٍ، غير ظلم الشرك، ولكنني

---

(18) نصري سهلب، في خطى محمد، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط 2 ص 254.

(19) سيرة ابن هشام، ج 4، ص 185.

أستشف من هذا أيضاً أنه تحذير من الفرقة والتفرق، لأننا أحياناً نساهم في الفرقة في أعمالنا دون أن ندري ما نأتيه، ونعتبره من الأمور الهينة، وهو مما يستدرجنا إلى ضياع هيبة الإسلام وتمييع حدوده. ومما يساعد على هذا الفهم أن الهاجس الأكبر للرسول بعد الدعوة إلى التوحيد هو الدعوة إلى الوحدة في العلاقات والعدل والوحدة بين أجزاء دار الإسلام قاطبة.

ومما له دلالة خاصة أن الله سبحانه نزل قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [سورة المائدة، الآية: 3]، بعد خطبة الوداع وأثناء عودة الرسول ﷺ إلى المدينة فقد اكتمل الدين وتمت النعمة الإلهية والرضا الرباني بالإسلام وحده. فلا نبوة بعد هذا، ولا دين ولا عقيدة بعد هذا ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾[20].

ومع كمال هذا الدين وتمام النعمة أن الجماعة العربية تحس لأول مرة في حياتها أنها مجتمعة على كلمة واحدة وهدي واحد، وقائد واحد.

على أن هذه المرحلة متقدمة من مراحل الوحدة، فهناك مراحل تالية تتسع فيها الدعوة وتعم الوحدة عالماً خارج جزيرة العرب. فحين عاد الرسول ﷺ إلى المدينة باشر في بعث الرسل إلى الملوك في أطراف الجزيرة وخارجها، وهذا يوحي بأن الطريق إلى الدعوة ما زال لما يكتمل على الرغم من دنو أجل الرسول، واختتام رسالته. فالذي يجب التأكيد عليه هو أنه إذا كانت النبوة قد اختتمت بمحمد ﷺ، فإن دعوة محمد لا تقف عند حدود أرض ولا حدود زمان. وأن كلام الله على لسان محمد ﷺ وعلى لسان قومه وأمته يمتد ما بلغ الليل.

ومما لفت انتباهي في توصيات الرسول للمبعوثين قوله لهم: (أيها الناس إن الله بعثني رحمة وكافة فلا تختلفوا علي كما اختلف الحواريون على عيسى

(20) سورة آل عمران، الآية: 85.

ابن مريم)[21]. وهذا يدل على ما سبق أن أكدناه من أن هاجس الوحدة وعدم الاختلاف والتفرق هو الذي كان يشغل الرسول في حياته وفي اللحظات الأخيرة من هذه الحياة خاصة.

وفاة الرسول ﷺ:

يدنو أجل الرسول وعينه مشرئبة إلى جيش أسامة المرابط ضواحي المدينة، وهو يأمر بإنفاذ بعث أسامة ويدعو له في اللحظات الأخيرة من سكرات الموت، وكان دعاؤه (عليه السلام) بالإشارة[22] وفي هذا ما فيه من الإشارة إلى ضرورة استمرار الدعوة واستمرار الجهاد في سبيل بقائها، وضرورة اتساع دائرة وحدة المسلمين في الأرض خارج حدود الجزيرة العربية. وكأنه (عليه الصلاة والسلام) أحس بضعف في الطاعة لدى المسلمين فكان يؤكد على ضرورة الخروج مع جيش أسامة وعدم الاختلاف في الانضواء تحت لوائه، حتى خرج عاصباً رأسه، ثم جلس على المنبر وقال: (أيها الناس انفذوا بعث أسامة، فلعمري لئن قلتم في إمارته لقد قلتم في إمارة أبيه من قبله، وإنه لخليق للإمارة، وإن كان أبوهُ لخليق لها)[22].

ويهمنا في هذا المقطع من الحديث عن وفاة الرسول ﷺ وصلتها بختم النبوة، ووحدة الأمة، واستمرارية تبليغ الرسالة، يهمنا أن نقف عند حالة المسلمين وهم يتلقون نبأ الوفاة ويشهدون جسد النبي المسجى.

يتبادر إلى الذهن أن قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ﴾[23] يشير إلى حادث وفاة الرسول فعلاً، في حين أن سبب النزول يشير إلى يوم أحد، وما كان فيه من انهزام المسلمين وجرح رسول الله ﷺ، وما حصل من الوهن والتأخر عن

---

(21) السيرة، ج 4، ص 187. (رحمة وكافة) هكذا في السيرة وفي المصادر التي تنقل عنه، وإن كان السياق يوحي بالقول: رحمة للناس كافة.

(22) نفسه، ج 4، ص 219.

(23) سورة آل عمران، الآية: 144.

القتال، والرجوع القهقرى[24]، ومما يساعد على اقتراب الآية إلى أجواء وفاة الرسول تلاوة أبي بكر الصديق لهذه الآية عندما مات الرسول ﷺ.

والحق أن في الآية دلالة عظيمة على عدم التعلق بالشخصية في حالة التعامل مع الرسالات السماوية، تعلقاً يجعل من الشخصية هي نقطة الارتكاز، حتى ولو كانت شخصية عظيمة مثل شخصيات الأنبياء وشخصية سيدنا محمد خاصة. يقول المفكر الإسلامي الجزائري (مالك بن نبي) إن الإنسانية تمر بثلاثة أعمار من حيث تطورها النفسي، فتتعلق أول ما تتعلق بالأشياء ثم بالأشخاص، ثم بالأفكار، وهي بهذا تشبه حالة الإنسان في طفولته ومراهقته ونضوجه[25].

وإن الآية لتدل على أن المجتمع العربي آنذاك، في مرحلة معركة أحد خاصة، لم ينتقل بعد إلى مرحلة النضج، مرحلة الرشد حيث تصبح الفكرة بحد ذاتها قيمة دون تأييد من طرف عالم الأشياء أو عالم الأشخاص.

والذي يبدو لي أن الأمر إبان وفاة الرسول ﷺ مختلف عن الحال يوم وقعة أحد. فما كان عمر يشك في وفاة الرسول وأنه يجري عليه ما يجري على الرسل السابقين حينما شهر سيفه مهدداً من كان يعلن عن وفاة الرسول. فالظاهر أنه ظن أن الأمر كان من قبيل الإشاعة، وأنه أراد أن يقطع الطريق على سالكي هذا السبيل.

وكان موقف أبي بكر (رضي الله عنه) أكثر صرامة ووضوحاً حينما قال (أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت)، ثم تلا الآية ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾[26].

---

(24) مختصر تفسير ابن كثير، اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، ط 4، ج 1، ص 322.

(25) إنتاج المستشرقين، وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، منشورات مسجد الطلبة، بجامعة الجزائر، ص 21. وينظر أنبياء الله أحمد بهجت، دار الريان للتراث، ط 14، 1987 م ص 448.

(26) السيرة، ج 4، ص 234.

الحق أنه وقع ارتباك لحظة وفاة الرسول ﷺ، وقع حزن عظيم وذهول، ولكنه لم يقع شيء من التراجع أو التقهقر أو الردة في النفوس المؤمنة خاصة. والذي حدث كان شيئاً من الأراجيف في نفوس ضعاف الإيمان في مكة خاصة.

على أن هذه الآية لا تعني أنها وقف على سبب النزول الأول وهو ما حدث في معركة أحد، فالمعلوم عن منهج القرآن أنه يشير إلى عموم اللفظ وخصوص السبب، وأن هذا لا يمنع أن يكون في الآية إشارة إلى ضرورة التزام العقيدة والمنهج والفكرة لحظة وفاة الرسول، وألا يذعن المسلمون لهول الصدمة إلى الدرجة التي ينسون معها الفكرة ذاتها.

والأمر نفسه ينسحب على حياتنا المعاصرة وحياة الناس إلى أن يبعث الله الأرض ومن عليها. فنحن نقدس شخصية الرسول ﷺ بمقدار ما نعلم من صلة هذه الشخصية بالعقيدة، وبمقدار ما نعلم من إخلاص الرسول لربه، وبمقدار ما نعلم من أن شخصية الرسول هي الشخصية التي ختمت بها النبوة والشخصية التي تجسدت فيها وفي سلوكها تعاليم الرسل كافة وأخلاق الرسل كافة.

عقيدة الوحدة والجماعة:

توفي رسول الله ﷺ وترك الأمة على المحجة البيضاء التي لا يضل عنها إلا هالك والمتأمل في ظواهر هذه المحجة من تعاليم وعبادات وأخلاق يجدها داعية تماسك وقوة ووحدة. ففي صلاتها صورة رائعة من صور الانسجام والاتحاد والوحدة في صفوفها، وفي انقياد الصفوف ومتابعتها للإمام، وفي تراصها، وفي دقة أوقاتها، بل وفي مكانها في بيوت اللّه. وفي صومها الجماعي المعلوم الذي يجسد اتحاد الناس في المشاعر والأحاسيس، لا فرق بين فقرائهم وأغنيائهم، ولا بين رجالهم ونسائهم.

وفي الحج وحدة كبرى بين القلوب من شتى الأقطار والألوان، وهو عبادة مفروضة لا يعذر منها إلا غير القادر. وقد عبر القرآن عن أهمية هذه العبادة في حياة الأمة، تعبيراً جعل منها قوام حياة هذه الأمة ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ

﴿ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾[27]، أي أن هذه الحياة لا تكون قائمة ولا مستقيمة بدون أداء هذه الفريضة في اليوم المعلوم والمكان المعلوم، وأن المنافع التي سوف يشهدونها هناك لا حد لها في منافع سياسية واجتماعية واقتصادية جاء التعبير عنها بصيغة التنكير لتدل على التعدد والشمول.

وكانت مكة منطلق وحدة الأمة في السنة التاسعة من الهجرة حين أعلن القرآن البراءة من المشركين ودعا الأمة إلى تجسيد التوحيد في العبادة الجماعية يوم الحج الأكبر، فلم يعد بعدها مشركون، بل أمة واحدة قانتة.

فكان أن أصبحت مكة النقطة المركزية التي يطوف حولها الموحدون تعبيراً عن ارتباطهم بالرب الواحد، وتعبيراً عن وحدتهم واشتراكهم جميعاً في الدينونة لله، والالتزام بتعاليمه والدعوة إلى تعاليمه.

وأنت تتلمس مظاهر الوحدة في هذه العقيدة التي جسدها محمد ﷺ في سلوكه وتعليماته. وتجدها في التجسيد العملي للأخوة في المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار. وهو عمل خالد أستطيع أن أجزم أنه لم يكن له شبيه في تاريخ البشرية ولن يكون. لم يكن في الدعوات السماوية السابقة، وما كان في الدعوات السياسية والاجتماعية في شتى مراحل التاريخ، وحتى في خيالات الاشتراكية الطوباوية أو الشيوعية.

وإنه لعجب أن يتخلى الإنسان (وهو من دم ولحم ومشاعر) عن أجمل زوجتيه وعن نصف ماله وأرضه، عجب حق، لا يذهب بغرابته إلا من عرف الجماعة المسلمة التي أدبها محمد ﷺ بخلقه وتعاليمه مثلما أدبه ربه.

تأتي التوجيهات الإلهية الداعية إلى الوحدة والتماسك ونبذ التفرق والشقاق من مثل ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾[28] ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾[29] ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾[30].

---

(27) سورة آل عمران، الآية: 97.

(28) سورة آل عمران، الآية: 144.

(29) سورة الشورى، الآية: 13.

(30) سورة الروم، الآية: 32.

فتأتي تعاليم الرسول تنزيلاً من تنزيل مؤكدة هذه المعاني، ومجسدة لها في السلوك العلمي، ومن خلال التعليق على حوادث معينة في حياة المسلمين. فهو يقول لأبي ذر (رضي الله عنه): (إنك امرؤ فيك جاهلية)[31] حين عير واحداً من الصحابة.

ويقول (ليس منا من دعا إلى عصبية)[32]، وتكون إحدى وصاياه للأمة في حياته وبعد رحيله: (يد الله مع الجماعة، وإنما تأكل الذئب من الغنم القاصية)[33].

عقيدة كلها دعوة إلى الوحدة والتلاحم من خلال الدعوة إلى العدل وتطبيق الأحكام على الناس كافة، فالأمة التي لا ينفصل فيها الشريف لأنه شريف، ولا يطاع فيها القوي لأنه قوي، ولا يُسمع للحاكم لأنه مجرد حاكم، أمة تشعر بأصالتها وإنيتها، وأنها وحدة متماسكة من الداخل.

فالظلم مثلاً ذهاب لقوة الأمة، وضعف في بنيتها وأجزائها من الداخل، فلا يمكن أن تتلاحم وتتواد وقويها يظلم ضعيفها. ولهذا ترى الرسول يؤكد النهي مرتين (لا تظالموا... لا تظالموا)[34] أي لا يظلم بعضكم بعضاً. وبهذا الإطلاق للظلم لأن له صوراً وأنواعاً شتى من الشرك إلى ظلم النفس، ويهمنا في هذا المجال الظلم الاجتماعي والسياسي.

عقيدة تجسد الوحدة عملياً في الفكر والوجدان معاً، وفي السلوك والتعامل معاً، لا انفصام بين ذلك كله. أين منها دعوات الفلاسفة التي تهوم في الخيال، أو تخاطب العقول وتضع النظريات التي يكون قصارى جهد الناس معها أن يفهموها ويكون التفاضل بينهم في التعمق بمعادلاتها. بينما كانت دعوة محمد الخاتمة قد رأت النور وأرته للناس في شكل جماعة ونظم كان بينها من الروابط ما يعجز عنها صنع بشر..

---

(31) رواه البخاري ومسلم (إيمان).

(32) بصياغات متعددة في مسلم، إمارة 57، وابن حنبل 2/ 106.

(33) رواه أحمد 5/ 16، 196، والنسائي أمامه 48، والدارمي صلاة 46.

(34) رواه مسلم، بر 55، وابن حنبل 5/ 160.

فخلف من بعدهم خلف:

هذا الكنز العظيم لم نحافظ عليه كما يحافظ ورثة الأنبياء والسائرون على خطى الأنبياء، بل لو كنا أصحاب مصالح دنيوية فقط لم نحافظ عليه مثل الرجال..

لقد كان هناك خلل أو تصدع في الحصون من الداخل منذ فترات مبكرة، تتمثل في المنحى السياسي الذي سارت عليه حركة التاريخ بعد معركة صفين، كان بعد الأمة عن صنع القرار، وبعد الأمة عن الحرية في البناء المادي والفكري لكيان الإسلام.

وبالإضافة إلى هذا التوجه السياسي من أوجه التصدع كان هناك الوجه العنصري، والوجه المذهبي وما تبع ذلك من عوامل خارجية ربّما كانت نتيجة من نتائج ذلك التصدع الداخلي، العوامل الخارجية التي تمثلت بهجوم المغول من الشرق وهجوم الصليبية من الغرب. حتى إذا ما كان الاستعمار بشكله الحديث استحكمت الحلقات على رقاب العالم الإسلامي تماماً.

ويبدو لي أني أكتب كما لو كان بيدي قيد لأني أشير إلى الأمور إشارات شبه غامضة، وإن كانت واضحة في ذهني وتلح علي بالتوضيح، ولن أسمح لنفسي..، إذ إن جغرافية الورقة لا تسمح بذلك.

حقاً كان الاستعمار الحديث نتيجة من نتائج التدهور المستمر في العالم العربي والإسلامي إبان عصور التمزق والشقاق والتفرقة التي حذر الرسول منها، وأبعدها عن وحدة الجماعة التي بناها عملياً، ويمكن أن نستعير هنا تعبير المرحوم مالك بن نبي (القابلية للاستعمار) وهو مصطلح مكثف يلخص المحنة تلخيصاً نفسياً واجتماعياً دقيقاً.

لا أريد أن أحدثك عن التجزئة والتقسيم في العالم العربي فهو جرح ينزّ بالصديد، أريد أن أنكأه لك بتذكيرك فقط بأن الاستعمار فعل بأجزاء العالم الإسلامي خارج البلاد العربية مثل ما فعل في هذه البلاد وأكثر، وأضرب لك مثلاً سريعاً ومقتضباً جداً في إفريقيا، فقد جزأ الغرب خلافة (سوكوتو) الواحدة في بدايات هذا القرن إلى (النيجر ومالي وبنين ونيجريا). كما جزأ الصومال

إلى صومال إنجليزي وإيطالي وفرنسي[35].

ولا أريد أن أحدثك عن الإقليمية والعنصرية العرقية التي جاءت ثمرة من ثمار التجزئة والتقسيم، إن كان لهما شيء من الثمار.

فقد تنادى المصريون بالفرعونية وتنادى العراقيون بالآشورية والبابلية، كما تنادي بعض الأفارقة العرب بالبربرية، وما أحاديث الفينيقية الشامية عليك بغريبة..

لقد كان المنادي يقول: عودوا إلى تلك الأصول السابقة للإسلام، حتى أن باحثاً مصرياً يرى أن المصريين جميعاً مسلميهم ومسيحييهم أقباط[36].. وصرت تسمع صباح مساء عن حضارة البحر الأبيض المتوسط التي كان يتحدث عنها طه حسين، ويقول بأن الإسلام خلال حكمه الطويل لم يستطع أن يخرج مصر من عقليتها الفرعونية الأولى[37].

وهو يصرح في أكثر من موضوع من (مستقبل الثقافة في مصر) عن ارتباط مصر بالبحر الأبيض المتوسط وأوروبا أكثر من ارتباطها بالشرق..

ولا أريد أن أحدثك كذلك عن هذه العرقية التي أطفأها نور الإسلام، ولكنها عادت وذرّت قرنها من جديد في العالم الإسلامي بفعل فاعل.. لقد عاد الحديث عن العرب والفرس من جهة، وعن العرب والترك من جهة أخرى. وصارت أذنك تألف سماع قول من مثل: ظلم العرب ولا عدل الترك، أو ظلم الترك ولا عدل العرب[38].

---

(35) عبد الرحمن سوار الذهب، أوضاع الأقليات المسلمة في القارة الإفريقية، منشورات مجلة الأزهر، عدد ذي الحجة 1408 هـ، ص 14.

(36) د. محمد حسين، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، مؤسسة الرسالة، ط 6، 1983 م، ج 2 ص 148.

(37) المجموعة الكاملة، المجلد التاسع، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط 1، ص 21.

(38) يراجع بحثا الأستاذين فهمي هويدي، وطارق البشري، عن العلاقة بين العرب وإيران، والعرب والترك اللذين ألقيا في ندوة الجغرافية السياسية (للعالم الإسلامي)، ونشرا في مجلة مستقبل العالم الإسلامي، السنة الأولى العدد الثاني، ربيع 1991 م.

أما الأديان الجديدة والعقائد الجديدة والعلماء الجدد الذي يُفتون حسب الطلب، فاذكرك فقط منهم بالبهائية، والأحمدية، ومن عجب ولا عجب، أن تتواجد هذه الأحمدية في المناطق التي كانت خاضعة لبريطانيا وليس في المناطق ذات النفوذ الفرنسي.. إذ تجد هذه الأحمدية في الهند وباكستان وفي نيجريا. ومعلوم لديك أنها لا تؤمن بختم النبوة، وتفهم (خاتم النبيين) على أنها تشير إلى (الخاتم) الذي نضعه بأصابعنا.. وكان أعظم إنجاز لهذه الأحمدية أن أبطلت مفهوم الجهاد في الإسلام. فأية صناعة إنجليزية رائعة كانت؟.

أما البهائية فيكفي دليلاً على ارتباطها بدوائر المخابرات الغربية أن الغرب أقام ضجة إعلامية ضخمة عندما تعرض البهائيون للضغط في إيران قبل عشر سنوات تقريباً.

أجل أريد أن أتحدث بأسطر أكثر عن (المذهبية) لأنها صناعة محلية، نفخ في كيرها، واستفيد من توظيفها لقتلنا.

والحق أنني لا أكتمك في أن المذهبية لا تكون خطيرة على وحدتنا إذا فهمناها بأنها وسيلة من وسائل فهم الإسلام، وإذا عدنا فيها إلى فهم السلف الصالح الذين لم يكونوا يتعصبون لاتجاهاتهم الاجتهادية، ولم يلزموا فيها أحداً[39].

الخطورة في المذهبية حين يبحث كل منتم إلى مذهب عن (خصوصيات) ذلك المذهب، ويحاول أن يعمقها معتقداً أنها تمثل الحقيقة الإسلامية كلها، وأن ما عداها من المذاهب خاطىء وباطل، إن لم يتجرأ فيدعي أن أهلها في النار..

المذهبية تكون خطيرة حين يتناطح أهلها تناطح الأكباش دون أن يحسوا بصوت السكين الذي يتهيأ ليجز رؤوسهم.. فلقد رأيت بنفسي الصراع غير

(39) ينظر، مختار عزيز، التقليد المذهبي إلى أين؟ منشورات دار (اقرأ) مالطة، ط 1، 1990 م ص 22، 23.

السلمي في نيجريا بين أهل السنة والصوفية والوهابية بينما البلد نهب للشركات الاحتكارية الغربية، ونهب لمخططات التبشير الكنسية..

والحق أن المذهبية في شكلها الحالي في العالم الإسلامي لم ترتفع إلى مستوى كونها وسيلة من وسائل فهم الإسلام أو الدفاع عنه، وهي بحاجة إلى فهم جديد ومراجعة جديدة لكي تكون كذلك.. وهذا موضوع ذو شجون..

وخلاصة الأمر أن هذه المعوّقات أمام وحدة المسلمين انتهت إلى شيء من (تفريغ) العقل المسلم من الفهم الصحيح للإسلام وانتهت إلى شيء من عدم التجانس في مناهج التفكير لدى هذا العقل، نتيجة لوسائل التعليم ومناهجه التي خضعت بالتمام لإشراف المناهج الغربية والتوجيه الغربي المباشر وغير المباشر.

وأصبحنا بحق أهل محنة لا يقوى على إزالتها إلا اللّه، بوسيلة هي (نحن)، وبأدوات هي (نحن)... ولكن كيف؟

المبدأ ثانية:

أما مبدأ التوحيد فقد تكفل اللّه ثباته في ديار الإسلام، وتكفل اللّه نشره خارج ديار الإسلام، وعلى يد أهل الإسلام. وهذا ما أكده النبي في ختام نبوته في خطبة حجة الوداع (أما بعد، أيها الناس فإن الشيطان قد يئس من أن يُعبد في أرضكم) والأمة اليوم ليست بحاجة إلى من يعرّفها ربها على طريقة أساليب (علم الكلام)، وليست مشكلتنا (أن نعلم المسلم عقيدة هو يملكها، وإنما المهم أن نرد إلى هذه العقيدة فاعليتها وقوتها الإيجابية، وتأثيرها الاجتماعي، وفي كلمة واحدة: إن مشكلتنا ليست في أن نبرهن للمسلم على وجود اللّه، بقدر ما هي في أن نشعره بوجوده، ونملأ به نفسه باعتباره مصدراً للطاقة)[40].

أما الجناح الآخر من المبدأ فهو (الوحدة)، وهو الجناح المهيض، المثخن بالجراح فهل من سبيل إلى أن ينهض، أو يفكر بنهوض؟.

---

(40) مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، دار الفكر، بيروت، ص 55.

الحق أن واقع الحال لا يعين على الأمل لمن لا أمل له. أما من له أمل فيمكن أن ينحت الجبال بأظافره وزيادة.

فيما يسمى بالعصر الحديث، أو عصر الاستدمار والاستخراب بحق كانت هناك ظلمات بعضها فوق بعض، صبت فوق رأس العالم الإسلامي مغربه ومشرقه، فكان التحدي وكان الموقف من التحدي بغض النظر عن النتائج. كان الركون إلى المبدأ والدعوة إلى الاتحاد والوحدة في فكر رجال الإصلاح، وعلماء الإسلام وشعراء العرب والمسلمين عموماً.

وأمامي الآن مجموعة من فتاوى علماء العراق في الموقف في جزء من أجزاء العالم العربي وهو يباح من قبل الاستعمار الإيطالي، ألا وهو (طرابلس الغرب) كما كان يطلق على ليبيا[41]، كما أن أمامي مجموعة من المصادر التي تشير إلى جهاد المصريين مع إخوانهم الليبيين[42]، وأخرى تشير إلى جهود الجزائريين وموقفهم من الغزو الإيطالي، على الرغم من القيود التي كان الاستعمار الفرنسي يكبلهم بها[43]. وهذ مثال واحد فقط.

وكان ذلك كله من منطلق الحفاظ على وحدة العالم الإسلامي والحفاظ على كيانه، لأن الغرب كان ينظر له كله على أنه شرق، فسمى مسألته كلها، بـ(المسألة الشرقية). وعلى الرغم مما حاول الاستعمار من فصل بين شرقه وغربه، فإن الأمة تصدت للمخططات الاستعمارية على الرغم من ضغطها وعدم تكافؤ القوى بينها وبين الاستعمار.

لقد أصبح التفكير في الوحدة حتى في الحلم، وعالم الأدب الخيالي، ففي (معراج) محمد إقبال (جاويد نامة) نجد الرجل في الحضرة الإلهية، يستمع إلى صوت من الغيب يقول: (على المسلمين أن يبرهنوا دائماً على تطبيقهم للمثل العربي القائل: (خيامنا منفصلة، وقلوبنا واحدة) أيها المسلم هل أنت ميت؟ كن حياً من خلال وحدة النظر تجنب التشتت. كن ثابتاً

---

(41) مجلة الموسم، العدد الخامس والسادس، المجلد الثاني، 1991 م ص 25.

(42) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، ج 1، ص 18.

(43) د. عمار الطالبي، ابن باديس، حياته آثاره، ج 1، ص 15.

محكماً. اخلق وحدة الفكر والعمل، كي تصبح صاحب سطوة في العالم)[44].

إن الاستجابة والموقف من التحدي في القرن الماضي وبدايات هذا القرن يمكن أن يتكرر ثانية وثالثة بأساليب وأدوات تنسجم والمرحلة، وبروح وعلم يفيد من تجارب الخطأ والصواب في مراحل الصراع السابقة. وربما بفهم أعمق لمقاصد الإسلام من وحدة الأمة وتماسكها وتراصها.

هل من الأفضل لنا أن نتعلل بمقولة أن العالم سينتهي وإن أوروبا ستُفني نفسها بنفسها من خلال انفجار نووي مدمر؟. هل من المعقول أن هذا الإنسان يفني عمره الذي ربما يساوي دقيقة واحدة من عمر الكوكب الذي يعيش عليه. (إن حديقة البشرية الجديدة العهد بالتفتح والازدهار لا تفنى بمثل هذه السهولة) كما يقول الأستاذ مرتضى مطهري بحق[45].

إن أمام إنسان هذا الكوكب أدواراً لا بد أن يمثلها، وأمام إنسان المنطقة الإسلامية وظائف لا بد أن يؤديها، ولعل أبرزها الانطلاق بأجزائه نحو الوحدة في ميادين الروح والفكر والأرض مستلهماً من عقيدته الخاتمة ونبوة خاتم النبيين ما يضيء دربه ويجعله يسير على معالم واضحة ليلها كنهارها..

إن فهماً جديداً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[46]، وهو الشعار الذي رفعه رجال الإصلاح، ولا ينبغي إلا أن يرفع في كل زمان ومكان، لأنه يمثل سنة قرآنية في الحياة والنفس والاجتماع.

غير أن الفهم الجديد الذي أريد أن أشير إليه منطلقاً من فكرة الوحدة هو أنه لا ينبغي أن يكون الوقوف عند الإصلاح الفردي وحده، بل الوقوف عند (القوم). والقوم هنا لا يعنى بها القوم باعتبارهم وحدة جنسية أو لونية، بل باعتبارهم وحدة عقدية متماسكة.

---

(44) د. بديع محمد جمعة، دراسات في الأدب المقارن، دار النهضة العربية، بيروت، ط 2، 1980 م، ص 105.

(45) مقالات إسلامية، دار التعارف، بيروت، ط 1، ص 93.

(46) سورة الرعد، الآية: 13.

فلن يكون هناك تغيير وعطاء إلٰهي إذا كان ثمة مؤمن في القاهرة وآخر في طرابلس، وثالث في طنجة ورابع في جاكرتا. فالعطاء الإلٰهي يأتي حينما تكون وحدة من خلال (قوم) بكل ما تعني هذه الكلمة من كثرة وقوة وتماسك.. ويعني هذا أن هناك بعداً جماهيرياً في الانطلاق والتغيير، يعقبه عطاء إلٰهي بالتسديد والترشيد.

وهذا يعني ضمن ما يعني أن رحمة اللّه على الأفراد، غيرها على الأمم والجماعات، إذا تغيرت وأسلمت وجهها للّه..

وإذا كانت مشكلتنا في البحث عن الوحدة والتضامن ذات وجه سياسي، من بين وجوهها العديدة، فهذا يعني أن نفهم السياسة على أنها من فعل ساس يسوس بكل ما لها من دلالة على الرعاية والخدمة والعطاء، وليس من فعل وسوس يوسوس. وما له من إيحاء معلوم على نفثات الشيطان وتلميذه ميكافيلي سيىء الصيت. فإذا خانتنا السياسة فلا ينبغي أن تخوننا وحدة العقول والمذاهب والأحاسيس والمشاعر، بل وحدة الهم والمصائب..

وإذا كان خوف من التفكير بالوحدة والأخوة في حضرة أمريكا القاهرة، وأوروبا المتحدة، فإن ثمة وعداً إلٰهياً يغري بالوحدة، وينسي هيبة أمريكا بأساطيلها وقنابلها ووسائل دعايتها، وعداً وعد اللّه به أمته على لسان نبيه، وهو يودع هذه الأمة ويشد على أيديها، ويوصيها بالتمسك بالذي لا ضلال بعده، ولا ضعف مع القيام بمسؤولية حمله.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[47].

وهذا الوعد يعني أن الدين الذي ختم بنبوة محمد لم يستكمل وظيفته بعد، ولم يظهر على الأديان كلها بعد، ولم يسد الكرة الأرضية كلها بعد.. وهذا يعني أن أمام المسلمين القيام بهذه المهمة انطلاقاً من التوحيد والوحدة. وأمام هذين الهدفين تذوب النعرات والمذاهب والأحزاب والنزعات والأهواء، وتصبح الأمة وجهاً لوجه أمام العالم الذي يتحداها أعظم التحدي، وبما لم يسبق له مثيل في تاريخها الطويل.

---

(47) سورة التوبة، الآية: 33.